عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

عمارات بغداد في العصر العباسي

خالد خليل الأعظمي
بغداد ـ الجمهورية العراقية

ولدت الفنون الاسلامية ونشأت على اثر ظهور الاسلام وانتشاره ، وقد نهضت وتطورت في خدمة هذا الدين الجديد ، والمجتمع الجديد ، والدولة الجديدة .

كانت هناك فنون عديدة سابقة للاسلام مثل الفنون الساسانية والبيزنطية والهلنستيةوالقبطية، اقتبس المسلمونمنها ما هم بحاجةاليه وما يتناسب مع دينهم وبلائم ذوقهم الفني ، واضافوا الى ذلك ما ابتكروه من عناصر واشكال جديدة ، ومن هنا كانت من مميزات الفنون الاسلامية تنوع مصادرها تنوعا كبيرا ، واتساع افق الاقتباس والاشتقاق فيها اتساعا كبيرا . على ان الفنون الاسلامية عموما تمتاز في الوقت نفسه بوحدة التعبيرات الفنية التي مصدرها هو ان المسلمين ـ عربا أم عجما ـ اصبحت لهم قدرة فائقة على تحوير العناصر المشتقة وتشكيلها باشكال جديدة لم تكن معروفة او متبعة من قبل ، وادخلوا عليها من الخصائص الفنية ، وابتكروا من الاساليب ما يطبع بطابع خاص يعبر عن وحدة الخيال الفني ، ووحدة التفكير والمزاج والالهام ، وكانت العمارة اول حقل ظهرت فيه تلك المواهب الفنية عندما نشأت من ذلك البناء البسيط الذي اقامه الرسول (ص) في المدينة حيث بنى مسجده الذي اصبح نظام بنائه نموذجا للمساجد الاسلامية . ولا يكاد بناء من الابنية الاسلامية الا ونجد فيه عنصرا من العناصر المبتكرة الجديدة . وكانت الفكرة الاسلامية الانشائية الرئيسية في تخطيط وتصميم العمائر بصفة عامة هي فكرة الاتساع الافقي وقابلية الامتداد حيثالفضاء الشاسع الذي تحدده المرتفعات . اما الزخارف المعمارية الاسلامية فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا واتخذت لها خصائص مميزة من حيث التصميم والاخراج الفني. ومن حيث الموضوعاتوالاساليبالزخرفية. وبصورة عامة نجد ان العمارة وزخرفتها في العصر الاسلامي قد اتسمت بطابع واضح ينطق بوحدة التعبير الفني مظهرا وجوهرا رغم اختلاف الاقطار الاسلامية وتتابع العصور .

وفي الحقيقة ان العمارة الاسلامية خضعت في في نشأتها وتطورها الى عوامل كثيرة من اشهرها وابرزها هي :

١ ـ العوامل الدينية التي تمثلت في تخطيط وعمارة المساجد والمدارس والاربطة والابنية الاسلامية الاخرى ، والتي انبثقت منها نظم تخطيطية لم تكن معروفة من قبل .

٢ ـ العوامل الجغرافية والطبيعية للاقطار الاسلامية ، حيث كانت لبعض العمائر اهداف وفوائد مقصودة ، كبناء الخانات في الطرق التجارية ، واقامة الاربطة عند حدود الدولة الاسلامية .

اما بالنسبة لمواد البناء فنجد استعمال الآجر في الاقطار والاقاليم التي تتوفر فيها مادة الطمى والطينة الجيدة كما في العراق ومصر وايران . بينما استعملت الصخور والاحجار في بلاد الشام والحجاز حيث يمكن الحصول بسهولة على هذه المادة هناك .

٣ ـ العوامل الاقتصادية والاجتماعيةوالسياسية. فقد بنيت عمائر متنوعة تبعا لاوضاع الدولة في حالات السلم والحرب ، كبناء المدن والقصور المحصنة والاسوار والقلاع . وكذلك اقامة

WWW.ATTAWEEL.COM

عمائر لطبقة الاثرياء والحكام تختلف عن ابنية عامة الناس(١) .

يمكننا القول بان العمارة الاسلامية قد اكتملت شخصيتها وبلغت اوج تقدمها خلال العصر العباسي، وهذا ما نلاحظه في الابنية الباقية ببغداد من ذلك العصر . اذ هي رغم قلة عددها لكنها تعكس السمات البارزة للعمارة والزخرفة آنذاك وتدل على خبرة واسعة في التخطيط والبناء ، وعلى مقدرة ودراية في اختيار المواد المناسبة وحسن استعمالها ، وعلى براعة في تكييف تلك الابنية وفق متطلبات الظروف المناخية للقطر . وهي مع ذلك تحتفظ بزخارف تدل على ذوق رفيع وعلى مهارة في ابداع الاساليب الفنية وتنسيق الاشكال الزخرفية .

ان هذا العدد القليل من العمائر الذي وصلنا من الفترة العباسية ليدعو الى الاعتزاز لما تميز به من مظاهر وخصائص جديرة باستلهام الافكار منها .

ويجدر بنا قبل الكلام عن العمائر العباسية القائمة ببغداد ان نشير ولو بايجاز الى مدينة السلام التي اسسها الخليفة المنصور وجعلها دائرية الشكل، وان نتطرق الى بعض الاشارات التاريخية وما ورد في المراجع العربية عن الابنية البغدادية ، لنستخلص منها بعضا من ميزات العمارة العباسية ببغداد التي لم يصلنا مثال قائم عنها .

اشارت كتب المؤرخين والرحالة بصورة مفصلة الى تاريخ بغداد وتاسيسها وخططها واسوارها ومداخلها ووصفها ؛ حتى ليستطيع المرء ان يرسم صورة واضحة عنها في عهد مؤسسها المنصور الذي جعلها مدورة لئلا يكون بعض الناس فيها اقرب اليه من البعض الاخر . وقد اصبح اختيار الشكل الدائري لهذه المدينة موضع نقاش طويل بين العلماء والباحثين ، فسار البعض على النهج الذي وضعه معظم المستشرقين في محاولاتهم نسبة كل جديد وكل ابتكار في الحضارة العربية الاسلامية الى العهود القديمة السابقة للاسلام ؛ فتوصلوا الى امثلة قليلة عن مدن مدورة الشكل تقريبا ، كما توصلوا الى ان هذا التخطيط الدائري له مزايا حربية وفيه اقتصاد في نفقات البناء بالنسبة لاي تخطيط آخر . ولكن الباحث يلاحظ في تلك الاراء امورا لا تؤيدها من ابرزها : أن امثلة المدن المدورة السابقة لبغداد كانت في عهد المنصور جميعها اطلالا مندثرة لا حياة فيها اضافة الى كونها بعيدة المنال نائية عن موقع الانظار ، ثم ان تلك المدن لم تكن مدورة تماما بل كانت شبيهة بذلك ، هذا بالاضافة الى كونها مدنا محصنة ذات اسوار وابراج فكانت استدارتها من متطلبات فكرة التحصين(٢) .

ان اهمية تخطيط بغداد تكمن في جوهرها اكثر من مظهرها ، وان هذا التخطيط نموذج واضح رائع من اهم نماذج تخطيط المدن التي عرفت في التاريخ كما انه ليس لهذا التخطيط نظير في اي مدينة سابقة للفتوحات العربية الاسلامية اذ هو تخطيط مبتكر من قبل الخليفة المنصور وحققه ونفذه اتباعه من المهندسين واهل المعرفة(٣) .

ان الفكرة السائدة في انشاء المدن الاسلامية الاولى هي ان يقام في مركزها المسجد الجامع ودار الامارة وبيت المال ثم تبنى المنازل حولها ، وهذا ما سار عليه المنصور ، ولكن الفكرة الجديدة في تخطيط بغداد هو ان يتساوى البعد بين المركز الذي فيه قصر الخلافة وبين جميع اطراف المدينة ، وهذا ما لم يحدث قبل بغداد . والناحية الثانية هي اننا لم نلاحظ في غير مدينة بغداد ان انبثقت من مركزها طرق مستقيمة ممتدة الى الاطراف . والناحية الثالثة هي تقسيمها الى اربعة اقسام متساوية بين كل واحد منها وآخر صفا من الطاقات تمتد من وسط المدينة الى المداخل الاربعة في سورها ، وكل قسم منها قائم بذاته تتناسق فيه الشوارع والدروب والمنازل وهذا مما لم يراعى في اية مدينة اخرى . والناحية الرابعة في مبتكرات تخطيط بغداد هي اكتفاء كل قسم من اقسامها الاربعة اكتفاء ذاتيا ، حيث المساجد والحمامات في كل ناحية ومحلة ، كما ويوجد سوق تجمع التجارات فيها(٤) .

بنى الخليفة المنصور المسجد الجامع في وسط المدينة المدورة وكان بسيط البنيان ، حيث استعمل في بنائه اللبن والطين واساطين الخشب . والى جوار

---

(١) شافعي (الدكتور فريد) : العمارة العربية في مصر الاسلامية (عصر الولاة) المجلد الاول ، مصر (١٩٧٠) ص ٢٢١ ـ ٢٩٢ .

(٢) انظر عن ذلك : اليعقوبي : البلدان (العراق ـ ١٩٥٧) ص ٦ .
الطبري : تاريخ الرسل والملوك (ليدن ـ ١٩٦٤) ج١٠ ص ٢٧١ ـ ٢٧٩ .
الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (القاهرة ـ ١٩٣١) ج ١ ص ٦٦ ـ ٦٧ .
البلاذري : فتوح البلدان (ليدن ـ ٨٦٦) ص ٢٨٧ .
دائرة المعارف الاسلامية : مادة بغداد (طبعة سنة ١٩٣٣)

(٣) شافعي : المرجع السابق ص ١٨٣ . فكري (الدكتور احمد) : اهمية تخطيط بغداد في تاريخ البلديات ، مجلة الاقلام (بغداد) ج ١ (ايلول ـ ١٩٦٤) ص١٠٤.

(٤) فكري : المرجع السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

هذا المسجد بنى المنصور قصره المعروف بقصر باب الذهب او قصر القبة الخضراء حيث اقيم فيه ايوان كبير مرتفع تعلوه قبة على رأسها تمثال فارس ببده رمح(٥) ؛ ومن المحتمل ان تكون هذه القبة قد كسيت بالواح القاشاني الاخضر او الاجر المزجج باللون الاخضر فاصبحت توصف بذلك .

توسعت بغداد حتى عبرت الى الجانب الاخر من نهر دجلة فسمي الجانب الغربي منها « الكرخ » واطلق على الجانب الشرقي اسم « الرصافة » وازدهرت المدينة بجانبيها ، وبنيت فيها قصور وابنية كثيرة ذكرت اسماءها المراجع العربية ولكنها اغفلت وصف عمارتها وزخارفها . على انه وصلنا وصف موجز عن بعضها . وفي قصص الف ليلة وليلة اشارات عديدة عن بعض القصور الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بزخارف ذهبية وملونة والتصاوير المتنوعة(٦) . واشارات بعض الكتب الادبية الى مجلس انشاه الخليفة الامين ابن هرون الرشيد كان فيه ايوان صورت فيه التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وابوابه ، وجعل كالبيضة بياضا(٧) . وذكر ايضا ان قصر المعتصم ببغداد كان له ايوان منقوش بالفسيفساء وفي صدره صورة عنقاء(٨) . كما وذكر ان احد الاغنياء بنى دارا زينت بالنقوش والصور الذهبية والكتابات التذكارية(٩) ، واشار الرحالة الى قصر الخليفة المستنجد بالله الذي كان واسع الارجاء فيه الرخام والاساطين المزوقة بالذهب والمزينة بالحجارة النادرة والمنقوشة بالريازة البديعة تكسو الحيطان(١٠) .

ان هذه الامثلة القليلة التي اوردتها المراجع القديمة تدل على ان الخلفاء والاثرياء من الناس قد تفننوا في بناء العمائر والقصور الفخمة من حيث البناء والزخرفة . وتدل ايضا على استعمال زخارف جدارية متنوعة منها جصية ومنها بالالوان المائية ومنها بالواح القاشاني ومنها باحجار المرمر والرخام .

شاركت عوامل كثيرة في خراب واندثار الابنية الكثيرة المشهورة التي اقيمت في بغداد خلال العصر العباسي ؛ ولم يبق غير قليل منها يرجع تاريخها الى الفترة المتأخرة من العصر العباسي اي الى حوالي القرن السادس والسابع بعد الهجرة (القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد) ، وهذا العدد القليل هو الاخر لم يسلم من يد الاعتداء والتجاوز وعوامل التخريب والتشويه ، على ان العناية والرعاية قد تداركت ذلك فبذلت جهود كبيرة من اجل المحافظة عليها وترميمها وصيانتها بما يكفل محافظتها على صورتها الاصلية .

ان اقدم الابنية العباسية القائمة ببغداد هو احد مداخل سور الجانب الشرقي ويعرف باسم « باب الظفرية » ومن المعلوم ان هذا السور بني في عهد الخليفة المسترشد بالله الذي حكم في الفترة بين سنة ٥١٢–٥٢٩ هجرية (١١١٨–١١٣٥) ميلادية(١١) . وهو عبارة عن برج اسطواني الشكل ضخم ومرتفع تتصل به قنطرتان احداهما تربطه بالمدينة والثانية تربطه بخارج المدينة ، وقد فتحت في جوانب الجدران واعاليها مزاغل للرماية ، هذا وزينت واجهة المدخل المطلة على المدينة بزخارف هندسية ونباتية بينما احاط بالبرج من الخارج شريط من كتابة تذكارية ، ان هذا المدخل يعتبر خير نموذج للمداخل المنحنية التي استخدمت في مدينة المنصور المدورة والتي فقدت آثارها ومعالمها الان .

ومن الاثار التي تعود الى العصر العباسي ثلاث مآذن كانت تابعة لمساجد مشيدة بجوارها ، واقدمها مئذنة مسجد الحظائر (يعرف حاليا جامع الخفافين) الذي شيد من قبل زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩ هجرية (١٢٠٢ ميلادية)(١٢) ؛ وقوامها قاعدة مثمنة يعلوها بدن اسطواني الشكل ينتهي بمقرنصات تحمل شرفة لوقوف المؤذن ؛ ويقوم فوقها عنق المئذنة وهو اسطواني الشكل كذلك لكنه يقل عن البدن في قطره وطوله ، ثم تنتهي المئذنة في اعلاها براس مدبب او

---

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٤٨ ـ ٤٩ ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٦) الف ليلة وليلة ، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العدوي (مصر ـ بولاق ١٢٧٩ هجرية) جـ ٤ ص ٣٠٢ ، ٣١٤ .

(٧) ابن المعتز : طبقات الشعراء (القاهرة ـ ١٩٥٦) ص ٢٠٩ .

(٨) المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (مصر ١٣٤٣ هجرية) ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .
العسكري : الصناعتين : الكتابة والشعر (مصر ـ الطبعة الثانية) ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

(٩) ابن الجوزي : المنتظم (حيدر آباد ـ ١٣٥٧ هجرية) جـ ١٠ ص ٨٠ ـ ٨٢ .

(١٠) بنيامين : الرحلة (بغداد ـ ١٩٤٥) ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(١١) ابن الجوزي : المنتظم جـ ٩ ص ٨٥ . ابن الجوزي : مناقب بغداد (بغداد ـ ١٣٤٢ هجرية) ص ١٧ .
ابن الاثير : الكامل في التاريخ (ليدن ـ ١٨٧٠) حوادث سنة ٤٨٨ ، ٥١٧ .

(١٢) جواد (الدكتور مصطفى) : عمارات القرن السادس المضمحة ، مجلة سومر م ٢ (١٩٤٦) جـ ١ ص ٦٥–٧٢

قمة تشبه القبة الصغيرة . وهذه المئذنة تمتاز بتناسق اقسامها واجزائها تناسقا بديعا يدل على ذوق رفيع وبراعة في بناء المآذن مما جعلها تترك اثرا بالغا في طراز المآذن البغدادية عموما . والمئذنة الثانية تقع في مسجد الجنائز المعروف حاليا جامع الشيخ معروف وقد كتب عليها تاريخ بنائها في سنة ٦١٢هـ (١٢١٥ ميلادية) وهي تشبه سابقتها مع اختلاف قليل في شكل المقرنصات وزخارفها اما المئذنة الثالثة فهي مئذنة مسجد قمرية الذي بناه الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦هجرية (١٢٢٨م)(١٣) وهي تختلف عن سابقتيها من حيث ارتكازها على قاعدة مربعة ووجود بدن اسطواني ضخم فوقها وبساطة مقرنصات شرفتها ونحافة عنقي بشكل يوحي الى انها قد تعرضت لاصلاحات وترميمات عديدة .

ومن العمائر العباسية التي بنيت خلال فترة نفوذ السلاجقة الابنية التي تقام بجوار اضرحة العلماء والاولياء واصحاب النفوذ والسلطان . ويوجد مثال عن ذلك في بغداد ينسب الى زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله وعرفت تسميته حاليا بالست زبيدة زوجة هارون الرشيد وهذا ما لا تؤيده الشواهد التاريخية والادلة الاثرية وعناصر البنيان وشكله(١٤) . والبناية المذكورة عبارة عن حجرة صغيرة مثمنة الاضلاع يقع مدخلها في احد اضلاعها ، ويقوم فوقها قبة مخروطة مقرنصة الشكل ويصل الارتفاع الكلي لها حوالي «١٣» مترا ، وسطوح الجدران من الداخل مغطاة بالجص بينما من الخارج تظهر مزينة باشكال عقود مدببة تملوها مساحات مزخرفة بالآجر .

وتوجد في بغداد بناية تعرف حاليا بالقصر العباسي تعتبر من روائع التراث العربي الاسلامي في العمارة والزخرفة ، ورغم ان تاريخها وحقيقتها غير معروفين تماما الا انه يوجد رايان بارزان عنها احدهما يقول بانها « دار المناة » التي بناها الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٦ ـ ٥٨٠ هجرية = ١١٨٠ـ١١٨٤ ميلادية) والراي الاخر يرى بانها « المدرسة الشرابية » التي بنيت في حدود سنة ٦٢٨ هجرية (١٢٣٠ ميلادية)(١٥) ورغم عدم التوصل الى نص صريح او ادلة قطعية الا ان الراي الاخير الذي يعتمد على وجود تشابه كبير بين هذه البناية وبين المدارس الاسلامية عامة والعباسية القائمة ببغداد مثل المستنصرية من حيث التخطيط والعمارة والشكل العام والمعزز كذلك بالشواهد التاريخية كل ذلك يجعله مرجحا على غيره . والبناية المذكورة عبارة عن مجموعة من الحجرات ذات طابقين تطل على ساحة مكشوفة في جانب منها بين الحجرات ايوان كبير يقابله مسجد ويقع خلف الحجرات رواق يتقدم قاعات كبيرة مرتفعة ويقع مدخل البناية في الضلع الجنوبي الغربي حيث يؤدي الى ممر افقي طرف منه يؤدي الى القاعات الكبيرة والطرف الاخر الى الساحة الوسطية ، ويتقدم الحجرات الصغيرة المطلة على الصحن رواق مزخرف بمقرنصات بديعة التكوين والنقوش . كما زينت بواطن الايوان والممرات وبعض السقوف بزخارف هندسية ونباتية .

وخير مثال للعمارة العباسية نجده في المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٢٥هجرية (١٢٢٧ ميلادية) واستغرق بناؤها سبع اعوام(١٦) . وهي تتكون من ساحة وسطية مستطيلة الشكل في جهتها الشرقية مدخل له واجهة شاهقة مزخرفة ويبرز في بنائه عن جدران البناية بينما يطل على الساحة بما يشبه الايوان الكبير ، ويحيط بالساحة الوسطية حجرات وغرف من طابقين ، وعلى طرفي الساحة ايوانان كبيران متقابلان ويقابل المدخل مسجد صغير ، وفي الجانب الجنوبي توجد قاعات كبيرة للدرس يتقدمها رواق مرتفع . وكانت في الجانب الشمالي من البناية من الخارج دار القرآن بقي منها ايوانها فقط . هذا وزخرفت جميع الواجهات وبواطن الاواوين بزخارف هندسية بديعة تتخللها العناصر الزخرفية النباتية بينما يمتد في اعالي الجدران من الخارج شريط زخرفي من كتابات بعمارتها وزخارفها موضع اعجاب من زارها من الذكارية وتاريخية . وقد كانت هذه البناية الرحالة والمؤرخين خلال تاريخها الطويل .

---

(١٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة (بغداد ـ ١٢٥١ هجرية) ص ٤ ، ١٨٨ ، ٣٩٦ .

(١٤) جواد (الدكتور مصطفى) العمارات الاسلامية ، مجلة سومر م ٣ (١٩٤٧) ج ١ ص ٢٨ وما بعدها .

(١٥) مديرية الآثار القديمة (العراق) : بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد (بغداد ـ ١٩٣٥) ص ١ ـ ٢١ ، ٢٠ـ٢٢ .

جواد (الدكتور مصطفى) : القصر العباسي ببغداد ، مجلة سومر (١٩٤٥) ج ٢ ص ٦٥ ـ ٨٦ .

ناجي معروف : المدارس الشرابية (بغداد ـ ١٩٦٥) ص ١٥٣ ـ ١٨٦ .

(١٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (حيدر آباد ـ ١٩٥٢) ج ٨ ص ٧٢٩ . ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء (مصر ١٣٠٩هـ) ص ١٢٣ . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٥٣ . السيوطي : تاريخ الخلفاء (مصر ١٩٥٢) ص ٤٦٢ .

التخطيط العام للابنية

ان الامثلة القليلة الباقية من العمائر العباسية وما ذكرته المراجع التاريخية والادبية توضح لنا الخصائص المهمة للتخطيط العام للابنية العباسية ببغداد فمدخل سور المدينة المعروف بباب الظفرية يذكرنا بمداخل مدينة المنصور المدورة التي جعلها من النوع المعروف بالمداخل المنحنية او المزورة ، والذي يتميز بكونه اكثر تحصينا ومناعة من سواه من خلال شكله وطريقة اجتيازه والعوائق الموجودة في طريق المقتحمين ووسائل الدفاع المقامة في جدرانه والخندق المحيط به .

اما المآذن فان من مزاياها تقسيمها الى اجزاء متناسقة في الحجم والطول ، فاستخدم لقواعدها الشكل المربع والمضلع ، بينما تميزت ابدانها بالشكل الاسطواني واقيمت شرفة المؤذن فوق طبقات من المقرنصات ذات الوظيفتين المعمارية والزخرفية . وقد روعي تناسب اقسامها تناسبا يدل على خبرة ومهارة . كما غلب على عمارة المآذن البغدادية طابع البساطة والهدوء في التخطيط والمظهر العام مما جعلها نموذجا يحتذى به حتى الوقت الحاضر .

وابنية المشاهد والقباب التي اقيمت فوق الاضرحة التي وصلنا مثال عنها تتميز باقامة حجرة مضلعة فوقها قبة مقرنصة ذات شكل مخروطي يساعد على ارتفاعها في الفضاء ارتفاعا شاهقا رغم المساحة الصغيرة التي بنيت فوقها مما يجعلها مميزة بارزة .

اما بالنسبة للمدارس فان الساحة الوسطية المكشوفة هي التي تزود الحجرات والغرف المحيطة بها بالضوء والهواء النقي كما انها تستخدم احيانا للصلاة في ايام الجمعة والعيد عندما لا يتسع مسجد المدرسة الصغير الى جمهور المصلين . واقيمت في هذه المدارس قاعات كبيرة للدرس تقع في جانب منها واستخدمت الاواوين فيها للاستراحة او للتدريس احيانا . وبنيت لهذه العمائر مداخل ذات واجهات شاهقة مزخرفة وبارزة عن البناية ربما لتكسب المدرسة اهمية وتميزها من العمائر .

البناء والتسقيف

استعمل الاجر كمادة رئيسة في البناء والزخرفة في جميع العمائر العباسية القائمة لامكان الحصول عليه بسهولة وتوفر المادة الاولية الجيدة التي يصنع منها في منطقة بغداد وما يجاورها . على ان المراجع العربية تشير الى استخدام الاحجار والجص الى جانب ذلك وخاصة في الزخارف الجدارية . وقد استخدمت في العمارة عموما العقود والاقبية ذات الاشكال المدببة في الغالب وخاصة في المداخل والواجهات ، والى جانب ذلك نجد عقودا مفصصة او مقوسة (جزء من قوس دائرة) . وقد تفنن المعمار في بناء الاقبية فجعل بعض السقوف ذات اقبية متقاطعة فتحت في وسطها فتحة للضوء والهواء وهذا ما وجدناه في قاعات الدرس الكبيرة في المستنصرية وبناية القصر العباسي . وقد استعين بالمقرنصات في تسقيف الممرات والاروقة .

وسائل الاضاءة والتهوية

ان المصدر الرئيس للضوء والهواء في مختلف العمائر البغدادية هو الساحة الوسطية المكشوفة فكانت معظم مرافق السكن مفتوحة الابواب عليها ، وكان اغلبها عديم النوافذ والشبابيك . وكانت الجدران الضخمة عاملا مهما في قوة البناء وفي عزله عن الخارج ، كما كانت ذات فائدة كبيرة في تكييف البناية صيفا وشتاء باعتبارها تساعد على احتفاظ المرافق السكنية بجو ودرجة حرارة ثابتة تقريبا وتكون عازلا لها عن الظروف المناخية القاسية . والى جانب ذلك استخدمت طريقة لايجاد جو مناسب في القاعات الكبيرة حيث اقيم رواق مرتفع البناء في اعلاه نوافذ تفتح صيفا فيصبح الهواء المار خلالها لطيفا قبل وصوله الى تلك القاعات والحجرات الموجودة عنده .

الزخارف والنقوش

اوضحت لنا الامثلة القائمة ان العمائر البغدادية لم تخلو من الزخرفة كما ان المراجع التاريخية والادبية فيها الكثير من الاشارات عن الزخارف المتنوعة التي كانت تزين الابنية العباسية ببغداد ، واذا كان الآجر قد لعب دورا كبيرا في زخرفة العمائر التي وصلتنا ، فان الجص والواح الرخام والمرمر والقراميد (القاشاني) كان لها دور في ذلك ايضا .

ان الآجر مادة يسهل تقطيعها وتهذيبها ونحتها ونقش العناصر الزخرفية عليها ومن خصائصه كذلك مقاومته ودوامه مدة طويلة . ومن خلال الزخارف التي وصلتنا تميز ثلاث طرق اتبعت في تكوينها :

١ ـ تصفيف قطع الآجر باوضاع مختلفة يبرز بعضها عن سطح الجدار مما يكون زخرفة تشبه في شكلها العام حياكة الحصير لذلك سميت بالزخرفة الحصيرية .

٢ ـ تقطيع الآجر الى اجزاء صغيرة ذات احجام واشكال تؤلف في مجموعها شكلا هندسيا ، وتكون تارة بارزة عن سطح الجدار ، او بمستوى سطح الجدار .

٣ ـ حفر الزخارف على سطوح قطع الآجر بحيث تظهر العناصر الزخرفية بارزة مجسمة وهذا يتمثل في العناصر النباتية بصورة خاصة .

اما بالنسبة للعناصر الزخرفية فاشهرها : الاشكال الهندسية ، الاشكال النباتية ، المقرنصات، الكتابات .

احتلت الاشكال الهندسية مكانة مرموقة حيث زينت بها معظم العمائر التي وصلتنا ، وقوامها الاطباق النجمية المتنوعة والمضلعات الهندسية . وهذه الاشكال الهندسية تعتمد في اساس تكوينها على الدائرة واقطارها التي تؤلف من تقاطعها والتقائها الاشكال المطلوبة ، وهذا يدل على ازدهار علم الهندسة ومهارة الفنان ، ومما اضفى حيوية على تلك الزخارف هو تزيينها بالعناصر النباتية .

لعبت الزخارف النباتية دورا بارزا كذلك فقد زينت بها الاشرطة والاطارات وارضيات الكتابات وبواطن الاشكال الهندسية والمقرنصات وكان العنصر الرئيس المستخدم فيها هو « المروحة النخيلية » المعروفة باسم (البالمت Palmette) ولكنه ظهر بانواع واشكال عديدة منها المفصصة والبسيطة . وبصورة عامة تميزت العناصر النباتية بالتناظر والتقابل والتكرار بصورة توحي الى ايجاد نظام خاص في مظهرها وتكوينها كما تميزت بظاهرة النمو والامتداد . وهذا النوع من الزخرفة اثار اهتمام الباحثين نظرا لما كان يشاهد في جميع المجالات الفنية وعلى مختلف التحف والآثار فاطلق عليه الباحثون اسم الزخرفة العربية او زخرفة التوريق العربي وسماه الاجانب باسم الارابسك (Arabeque) (١٧) .

ومن زخارف المهمة عنصر المقرنصات الذي كانت وظيفته عمارية فاصبح يؤدي دورا زخرفيا كذلك ، وظهر بأزهى اشكاله في بناية القصر العباسي والمقرنصات تتكون من مجموعة من قطع الآجر تختلف في شكلها وحجمها وتتدرج في طبقات او صفوف من حنايا وكل بارزة تنتهي باشكال نجمية او قباب مضلعة صغيرة ، ومما زاد في رونقها وبهائها تزيين بواطنها بالعناصر النباتية .

واستخدمت الكتابات الذكارية كعنصر من العناصر الزخرفية حيث زينت بها الواجهات بشكل اشرطة وحقول تمتد في اعلى الجدران او في مداخل العمائر وقد انجزت هذه الكتابات بطريقتين : تارة ذات حروف بارزة كبيرة كل حرف من كلماتها يتكون من عدة قطع من الآجر ، وتارة اخرى تظهر الحروف بارزة فوق مهاد من زخارف نباتية قوامها اغصان وفروع مورقة تملأ الفراغات الموجودة بين الحروف .

ان تلك المزايا والخصائص التي نلاحظها في عمارة العباسية ببغداد تدل على الجهود الكبيرة المبذولة من قبل المعمار والفنان خلال تلك الفترة التاريخية ، وتوضح لنا مدى الخبرة والمهارة في هذا المضمار ، وكذلك تبين لنا المعالجة العلمية والموضوعية لتقلبات الجو والمناخ في القطر ، وفي ذلك ايضا توضيح لجانب من حضارتنا وتراثنا المتميزة بالحيوية والتجدد والابداع والاتقان ، مما يجعلها امثلة تستلهم منها الافكار .

---

(١٧) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (مصر ١٩٦٥) ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٩٠ . مرزوق (دكتور محمد عبدالعزيز): الفن الاسلامي ـ تاريخه وخصائصه (١٩٦٥) ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .